«لا تموت ثقافة إلا بسبب ضعفها»
أندريه مالرو (1901م ــ 1976م)
كتاب فتنة الغرب

الفصل السادس

أي ثقافة نختار لأبنائنا؟

«ليس التلفاز سوى أداة، يمكن أن تسخر للخير أو الشر، ولا أحد يستطيع أن يدعي بطيب نية أنه لا توجد برامج مفيدة تربوية وتكوينية وثقافية!». إن هذه الحجة التي يلجؤون إليها كثيراً لإقناعنا تبدو مقنعة للوهلة الأولى، وتستحق أن نعلق عليها.

أولاً: وبحكم كوننا مدرسين لا يمكننا إلا أن نفخر بجميع التعابير مثل: «تربوي» و «تكويني» و«مفيد» و«ثقافي». وهذا يظهر مدى احترام الناس للمدرسة القائمين عليها بشكل خاص، ولكننا لسنا مقتنعين بأن المؤسسة التعليمية الحالية تستحق دائماً هذا المديح، فعندما نضعها تحت الأضواء، ونراها بأعين الوالدين والصحفيين والأوساط الاقتصادية والسياسة، فإن نعوتاً أخرى أقل إطراء تنطلق غالباً عن علم ودراية.

الثقافة وانعدام الثقافة

وعلى كل حال فالمدرسة ليست موضوع حديثنا، ولنعد إلى أغنام بانورج وراعيتهم (مثل فرنسي يعني العودة إلى الموضوع الأصلي) أي التلفاز! فكلمة «ثقافة» قد أطلقت، وكلما حاولنا أن نتخيل أثراً إيجابياً للتلفاز على

الأطفـال، فإننا نسمع الكلمة البديهية ثقافي، ولكن ما الثقافة؟ فكل إنسان عنـده فكرته الخاصة، أو مَوّالَـه الفكري الصداح حـول الموضوع. حتى لو كانت التعاريف متضاربة أو متناقضة فكل شخص مُحق، فالثقافة موجودة تحت اللحـاء أو بين اللحاء ولب الساق، وفي الشكل أو المضمون، وفي القلب والنفسـ، وهي أي شيء نعطيه قيمة نابعـة من أنفسنا، فمثلاً هناك ثقافة عُماليـة و ثقافـة فنية و ثقافة فكريـة، وثقافة رأس المـال، وثقافة الشارع، وثقافـة الكوكاكـولا.... فهل ماندلسون أكثر ثقافة مـن إيلفيس بريسلي أو فرقة المسدسات والورد بالنسبـة لي؟ وبالنسبة لابني؟ وبالنسبة لجارتي؟ وبالنسبـة للاجـئ سياسي من رواندا؟ أو بالنسبـة لدوروتيه أو جان ماري كاڤادا؟

الثقافـة؟ هل هي شبكة أم غربال يستطيـع كل إنسان أن يحجز بها ما يريد أو يستطيع حجزه، أو نادراً ما يجب عليه الاحتفاظ به؟

مـا الشيء الأهم معرفتـه؟ اسم آخر زوجة لجوني هاليـدي؟ أم نهاية الحلقـة 128 من الموديلات الراقيـة؟ أم نتيجة مباراة كرة القدم المشهورة بـين فرنسا وبلغاريـا؟ أم اسم عائلـة رئيس القوة العسكريـة الصربية في البوسنـة؟ كل شيء مهم أولا شـيء له أهمية، وذلك يتبـع المزاج، والفراغ والمصلحـة والميـول... إذاً فلماذا لا نقبل أن يكـون هنالك « ثقافة تلفازية» كذلك؟ ولكنها حتماً ليست ثقافة وحيدة وإنما ثقافات، والأفضل استخدام تعبـير: عناصـر ثقافية، ليـس التلفاز سـوى «مُسوّدة ثقافـة» هائلة، حيث يختلـط و يتشابـك ويضطـرب كل شيء لـدى الطفل المهمـل المتروك دون اهتمـام، كم أعلناهـا مُدوية حاجة الطفل «للعب الفاعـل» ليتطور بتوازن. فالطفـل أمام الشاشة وتتابع صورهـا لا يمكنه أن يختار منها إلا بناء على

قاعـدة من التجـارب الشخصية ذات صلـة بالواقع، ومبنيـة على تواصل وحـوار مـع البالغين، ليبني مـا سيكـون بالتدريج قيمه وثقافتـه الراسخة يحتـاج الطفل لقواعـد متينة ثابتة وخاضعـة باستمـرار للنقاش والحوار والمواجهة مع الأهل.

وهذه حتماً ليسـت وظيفة التلفاز، فليس للتلفاز مهمة سوى اللهو ولفت النظر بأي طريقة، وهذا ينطبق على الصغار و الكبار، فالتلفاز يشبع بل و يتخم الجميع بحسائه:

قبضـة من الفنـون، وما يشبـه البرامـج الأدبية، وملعقـة صغيرة من الأفـلام الوثائقية، وأباريق من الرياضـة، وأوعية لِفتٍ من المسلسلات فئة ب وج، وقدور من الألعاب، وأي شيء يجذب الجمهور، و منوعات، وبراميل عروضـ حية من تلفاز الواقع، هل تقبلـون؟ حسناً، أم ترفضون؟ للأسف، وسنحـاول أن نحسن الأمـور في المرة التالية، وبمـا أن التلفاز متمسك بك و يهمـه أمـرك، فهو حريص علـى أن يعرض عليك ما يعجبـك، ويبدو أن مـا يُعجب الجمهور في سويسـرا و بلجيكا و فرنسا والبلـدان الغربية،ليس بالضـرورة ثقافـة تقليدية مُعترف بها مـن قبل طبقـة اجتماعية و فكرية نخبويـة، يشرح برونـو لوساتو الدقة البالغة لظاهـرة الثقافة = الملجأ «في المسـاء عندما تُبث مقطوعة رائعـة لموازر يعزفها كارل بوهـم تصل نسبة المشاهـدة إلى 2% من الجمهور بالكاد، مقابل 16% في ألمانيا، أما التلفاز الفرنسـي المنافسـ ـ فيلـم عصابات من الفئـة ب ـ فيحصـد 60% من المشاهديـن، ثم نأتـي بعدها و ندافع عن الثقافة! حتـى كبار المسؤولين في التلفـاز الحكومي لا يجرؤون على الدفـاع عن الثقافة خوفاً من أن يظهروا بمظهر النخبويين.

و لنتكلم بمنتهى الصراحة مهما كانت قيمة أو نوعية أو الأهمية الحيوية لبرنامج تلفازي، فإنه إن لم يحصل إلا على اهتمام شريحة ضيقة من «المثقفين المقتدرين»، يصبح برنامجاً نخبوياً، ومن ثم محل جدل محتدم؛ ويجب استثناؤه من الثقافة الشعبية الشابة فاقدة الجذور، إن محاولة توجيه برنامج مخصص للنخبة (الرجعية، البرجوازية، المحافظة ...إلخ) إلى أكبر عدد من المشاهدين يدل على توجه نخبوي!».

ابن الدعاية

«الهواء الذي نستنشقه مكون من آزوت وأوكسجين و دعاية ...»

«إذا كنت ترغب فعلاً أن تحقق مبيعات كبيرة، فعليك أن تستخدم أطفالاً كمساعدي بيع، فالطفل يروج للبضاعة، فهو يثير أعصاب أمه وأبيه حتى يجعلهم يشترون له ما يريد»، صرح بهذا مختص بالموضوع في المجلة الأمريكية عصر الدعاية.

والوسيلة المفضلة للتأثير على الأطفال هي التلفاز، أولاً: لأنه وسيلة لهوهم المفضلة: فهم يخصصون له 40% من وقت فراغهم، ويخصصون 12% من ذلك الوقت للمطالعة (وذلك عائد لأن المطالعة تحتاج إلى التمكن من القراءة، وهذا ليس ضرورياً لمشاهدة التلفاز).

إن الأطفال الأمريكيين «يمتصون» بحسب إحصائية فانس باكار 20000 مشهد دعائي في السنة، إن الدعاية التلفازية هي الأكثر تقديراً من قبل الأطفال (96%) وتليها دعاية المذياع (40% في استطلاعات الرأي)، وتليها الدعاية بالإعلانات في الطرق (34%) والدعاية في المجلات (34%).

نعم هذا صحيح! ولكن للتلفاز قيمه الخاصة وثقافته التي تُسمى «أوديمات»، وله إحصائيات مشاهدة وله اعتباراته المادية!

والأطفال ليسوا منسيين في هذا السباق على الربح، وخاصة من قبل المُعلنين على التلفاز.

ففي العام 1988م خصصت المجلة الفرنسية تيرسييل استطلاعاً للرأي يُوضح هذه الفكرة: «إن حجم الاستهلاك يبلغ 400 مليار فرنك فرنسي». وبين هذا الاستطلاع أن الأطفال المُولَعين بالإعلانات لهم القول الأخير في 15% من مصاريف العائلات الفرنسية.

فاليوم البرامج التلفازية المخصصة للأطفال تسبقها و تليها وأحياناً تتخللها رسائل دعائية غرضها الترويج لسلع استهلاكية للأطفال مثل: الألعاب و ألعاب التسلية والحلويات، وللأهل كذلك؛ مثل اللبن والمنظفات ومعاجين الأسنان والأطعمة المجمدة، أو أطعمة القطط. إن مصنعي هذه المنتجات الأخيرة يعرفون قدرة الأطفال على إقناع أمهاتهم المُتعبات عصبياً اللواتي يدفعن عربة التسوق في سوق تجاري يغص بالزبائن.

الذاكرة والبيئة والمرجعية

«الثقافة هي ما يتبقى في الذهن عندما ننسى كل شيء» إننا نتذكر عندما كنا مراهقين كم وقفنا حائرين أمام موضوع تعبير يتعلق بهذه الفكرة، وبعد مرور ثلاثين عاماً فنحن ما زلنا مقتنعين بسطحية الفكرة.

فنحن إذا نسينا كل شيء، فلن يتبقى منا سوى شخص فاقد للذاكرة أو معتوه.

obeikandl.com

إن موضـوع الثقافـة هو مشكلـة ذاكرة قبل أي شيء آخـر، وإن تركيب جسدنـا يقتضي ألا تكون الذاكرة فعالة إلا إذا اعتمدت على مرجعية ثابتة ترتبط عناصرها ببعضها ارتباطاً وثيقاً.

إن الذاكـرة ليست رُكاماً من الذكريات أو الصـور لا يُعرف رأسها من ذنبها، ولكنها عملية تولد أفكاراً جديدة يمكن استخدامها مباشرة اعتماداً على تجاربنا السابقة التي نُوليها اهتماماً وأهمية خاصة، ولكن ماذا يفعل التلفاز مـن خلال برامجه التي تُراعـي كل الأذواق، وقِـدرِه الثقافية التي تصهـر وتخلط كل الأفـكار، وفوقها هـذه التقنية الرائعـة المُسماة بجهاز التحكم عن بعد؟

يسقـي التلفاز الطفل بل يغمره ويُغرقه بسيل مُستمر من المعلومات غير المترابطة وغير المتسلسلة.

هذا الموزاييك أو المزيـج أو المشكال* من المشاهد المانوية* غالباً يجعل الطفـل يظن بأن كل شـيء له قيمة، وبأن الشيء وعدمه لهما نفس القيمة. وهذا يؤدي للبلاهة وانعدام الثقافة.

إن معرفة هذا الأمر تشكل صدمة قاسية للطيبين الذين كانوا يعتقدون أن الرائـي يمكن لـه أن ينشر بين الناس عامة مـا كان مخصصاً للنخبة. وهـذه الصدفة تشابـه تلك التي تلقاهـا أصحاب المبـادئ الكرماء الذين كانوا يتخيلون قبل عدة عقود الوصول إلى مدرسة تقوم على المساواة وتزيل الفوارق الاجتماعية والثقافية.

* المشكال: آلة أنبوبية تحتوي على مراءٍ مركزة حيث إن الأشياء الصغيرة الملونة الموجودة معها في الأنبوب تتحرك فتولد رسوماً مختلفة الأشكال والألوان.

* مانوي: صفة من مذهب ماني الفارسي صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام.

المدرسة والتلفاز وهما بنتا مجتمعنا تتجهان على ما يبدو نحو غايات غير تلك التي وُضعت لها، إن الحالمين اللطفاء نسوا ببساطة الدور الأساس الذي يلعبه الوالدان في تربية وتحضير الأطفال.

حدثني عن ثقافة الجنس

إن المهووسين بالتلفاز مولعون بالجنس

تعتقد محطة التلفاز الفرنسية الأولى TF1، إضافة لتجار الصور الآخرين، أن بإمكانها الوصول عن طريق إغواء المشاهدين البالغين الذكور إلى مستويات مشاهدة عالية جداً تُقارب تلك التي تحصل عليها برامج مخصصة للكبار مثل «هيلين والصبيان»: الدياثة(*) ثم الجنس، إن العائق الوحيد في وجه تطور هذه التجارة الجنسية هو الهيئة العليا للإعلام (CSA)، التي تلعب دور الشرطي بالنسبة لمحطات التلفاز، ولكن هذه الهيئة اُستُهزِئ بها عندما منعت عرض فواصل دعائية تتعلق بمستحضرات تستخدم للاستحمام، وأخرى لشركة بيجو للسيارات، وبسبب الحملة الشعواء عليها تكتفي الهيئة بتقنين أوقات عرض الأفلام و المشاهد الإباحية (الإباحية «الخفيفة») بعد الساعة الحادية عشر ليلاً، والجنسية الفاضحة بعد الثانية عشر ليلاً وحصراً على القناة الزائدة Canal plus، والقناة عبر الكبل المدعوة السينمائية Ciné-cinémas، والعودة إلى التصنيف الموجود لصالات السينما، يبدو هذا الحل كسولاً ولكنه فعال.

ولكن في بداية أيلول ستجد الهيئة العليا للإعلام نفسها وقد تجاوزتها الأحداث، فالمزيد من المنتجات الإباحية ستأخذ شكل الأفلام التلفازية التي لا تعرض في صالات السينما.

(*) الديوث في العربية هو الذي لا يبالي بانتهاك عرضه.

ثم وبحسب ما نشرته المجلة الأسبوعية الاختصاصية (CB News)، فإن رجال الإعلام الخبيثين قد وجدوا طريقة أخرى للعرض. فالمجموعة الإعلامية المشهورة كارا تُعد ما تسميه «الدراما المخصصة للكبار»، وهذا يعني أفلام عادية (مغامرات ـ حب ـ ...إلخ) تُشبع بأكبر كم ممكن من المشاهد الإباحية.

وبفضل هذه التورية فإن الهيئة لن تفقه شيئاً، وستصل الأفلام لجمهور المشاهدين الذين يشاهدون التلفاز في الساعة الثامنة والنصف مساءً، وهذا سيمنع الصبية من التسكع في الطرقات.

سيرج ريشار في الجريدة المشهورة «البطة المصفدة» في 1993/8/18.

إن الأمر دون شك خطير بالنسبة للمدرسة التي تستمر نفاقاً باستخدام لغتين متناقضتين إحداها احترام الطفولة، والثانية هي الاصطفاء الاجتماعي الضروري والمتكبر بآن واحد، وهذا الأمر أهون على التلفاز حتى يثبت العكس، فالرائي ليس علمانياً أو مجانياً أو إجبارياً، وهو بالخصوص لم يَدَّعِ أبداً أن مهمته التعليم أو التثقيف، علينا أن نتقبل هذا الفانوس السحري الحديث العهد، ولا ننتظر منه أن يثقف أو يُربي أو أن يُشرف على متابعة أبنائنا بدلاً منا.

ولنترك مهمة تلخيص الموضوع للسيدة بيتلهايم المُربية و الإعلامية الأكثر جدارة منا، فالباب من الكتاب الذي نحن بصدده مُغرق في التشاؤم، و يدفعنا لإلقاء جهاز التلفاز في الشارع، وهو الحل الأسهل، أو إلقاء هذا الكتاب ومؤلِفيَه على قارعة الطريق: «التلفاز هو وسيلة إعلام صُنعت بغرض الترفيه؛ وإنها لا تساعد أبداً على استخدام المحاكمة العقلية المتوازنة، أو

دراسة محاسن أو مساوئ قضية ما، فلا يمكننا أن ننتظر من وسيلة إعلام ما هو مُناقض لطبيعتها.

إن المعلومات التي نحصل عليها من خلال برامج التلفاز تميل لأن تكون ممثلة لرأي واحد، إضافة إلى كونها بسيطة لحد السذاجة وغير مُحايدة. ولذلك فإن الطفل الصغير لن يتعلم شيئاً يُذكر من خلال مشاهدة أفضل برامج التلفاز، وحتى تلك المخصصة لسنه؛ لأن تجربته في الحياة محدودة جداً، أما البالغون والمراهقون فلهم نظرة إلى التلفاز بحكم خبرتهم تسمح لهم بتبني موقف ملائم، وكي يتمكن الأطفال من القيام بذلك فهم بحاجة لمساعدة الراشدين.

obeikandl.com

obeikandl.com

«لا يمكن لأحد أن يكون مسؤولاً ويصاب باليأس بآن واحد»

كتاب طيار حربي للكاتب إيكزوبري (1900م ــ 1944م)

الفصل السابع

ما العمل؟
ماذا على كل أن يفعل؟

إلى القراء الذين تحلوا بالصبر بمرافقتنا حتى الآن، أو إلى الذين قلبوا بسرعة فهرس الكتاب ليصلوا إلى الباب الأخير، كي يحصلوا على بضع وصفات سريعة ورخيصة ليحلوا مشكلة أطفالهم والتلفاز، نحب أن نقول وبأعلى صوتنا: بأنهم لن يجدوا خلال الصفحات التالية خطة يتبعونها عامة ومنقذة بآن واحد.

أولاً: لأنه لو كانت هناك خطة فنحن لم نجدها بعد، ثم لأننا نرفض أن ندعي الحق والكفاءة في «إعطاء الدروس» في مجال كثرت فيه المتغيرات النوعية والاجتماعية والتعليمية وتنوعت.

الوالدان اللذان لا يمكن استبدالهما

إن استنتاجاً تخلص إليه كل الكتب والدراسات واستطلاعات الرأي والوثائق المتعلقة بالتلفاز والأطفال هو: أنّ دور الوالدين والوسط العائلي الأساس في التعلم واكتساب المهارات، وفي إدارة الوالدين والوسط العائلي الأساس في التعلم واكتساب المهارات، وفي إدارة هذه الوسيلة الإعلامية المدهشة والمثيرة للجنون بآن واحد والسيطرة عليها، والتي تُدعى: التلفاز.